أشكال التناص الشعبي في الرواية النسائية السعودية

(رواية نساء من أرض مدين لفاطمة البلوي أنموذجًا)

الباحثة

تهاني قليل أحمد الجهني

طالبة دكتوراه بجامعة الملك عبد العزيز بجدة

أشكال التناص الشعبي في الرواية النسائية السعودية
(رواية نساء من أرض مدين لفاطمة البلوي أنموذجاً)

تهاني الجهني
قسم اللغة العربية وآدابها ، كلية الآداب والعلوم الانسانية ، جامعة الملك عبد العزيز، جدة المملكة العربية السعودية.
tahaniar23@gmail.com

الملخص:

تتناول هذه الدراسة التناص الشعبي في رواية (نساء من أرض مدين) لفاطمة البلوي كأنموذج للرواية النسائية السعودية، بغية الكشف عن تمظهراته، وعلاقته بالمضمون والبنية السردية؛ لما يتسم به هذا الموضوع من أهمية كون الموروث الشعبي يغوص في الذاكرة الجماعية، ويعبر عن وجدان الشعوب وقلقها عبر التاريخ، فهو انفتاح على الماضي لتفسير كثير من مظاهر الحاضر، وهو مظهر من أهم مظاهر الارتباط بالتراث، ويمثل ظاهرة جديرة بالبحث والتحليل في الرواية النسائية، وبخاصة مع ندرة الدراسات المستقلة في هذا الموضوع، وقد توسلت الدراسة بالتحليل والنقد للكشف عن أشكاله المختلفة وعلاقتها بالرواية، وذلك من خلال محورين: الأول تناولت فيه: التناص وتاريخه النقدي، والثاني تناولت فيه: أشكال التناص الشعبي في رواية (نساء من أرض مدين)، لتصل بذلك إلى العلاقة بين مضمون الرواية، وشخصياتها النسائية، والمكان الرئيسي في الرواية وهو الصحراء إذ أثر كل ذلك في ظهور أشكال متعددة من التناص الشعبي، ذات دلالات لها علاقة بمضمون الرواية، وذات شخصيات نسائية تماشياً مع الرواية .

الكلمات المفتاحية: الرواية النسائية، الرواية السعودية، التناص، التناص الشعبي، نساء من أرض مدين.

Forms Intertextuality of popular in the Saudi female novel

(The novel of Nisa' min 'ard madyan of the debtor of Fatima Balawi as a model)

Tahani al-Juhani
Department of Arabic Language and Literature major, Faculty of Arts and Humanities, King Abdul Aziz University in Jeddah, KSA.
E-mail : tahaniar23@gmail.com

Abstract

This study examines the popular intolerance of Fatima al-Balawi's novel (Nisa' min 'ard madyan) as a model for the Saudi female novel, in order to reveal its manifestations and its relationship to the content and narrative structure. Because of the importance of this issue of the fact that the popular heritage, diving into the collective memory, and express the conscience and concern of peoples throughout history, it is an opening to the past to explain many aspects of the present, It is one of the most important manifestations of association with heritage, and represents a phenomenon worthy of research and analysis in the female novel, especially with the scarcity of independent studies in this subject. And the second dealt with: Forms of popular intertwining in the novel (Nisa' min 'ard madyan), thus reaching the relationship between the content of the novel, and its female characters, and the main place in the novel, the desert, which affected all the emergence of multiple forms of popular intertwined, with implications related to the content of the novel, and female characters in line with the novel.

Keywords: female novel, Saudi novel, intertextuality, popular intertextuality, Nisa' min 'ard madyan

مقدمة

اتسمت الرواية النسائية السعودية بقدرتها على التجدد ومواكبة الانفتاح الثقافي والمعرفي، والانسجام مع تطورات السياق النقدي والفني والاجتماعي المحلي والعربي، دون أن تتخلى عن تاريخية المكان والأمة فهما المرجعية الثابتة التي تنهل منها بكافة تمظهراتها، ومع هذه الموازنة بين التاريخ والتطور، أبدت نضوجاً ووعياً في الكتابة الفنية، وقد تمظهر ذلك بشكل كبير من خلال ظاهرة التناص، والتي يتجلى من خلالها العلاقة الجدلية بين الرواية والنصوص الأخرى، والمرجعية الثقافية والفكرية للرواية، والانفتاح على الآخر أيًّا كان زمانه ومكانه، تعبيراً عن مضامين الرواية، ورؤى شخصياتها وثقافاتهم.

وينهل التناص من مرجعيات ثقافية وفكرية مختلفة ممتدة عبر الزمان والمكان، دينية، وتاريخية، وثقافية، وحضارية، وشعبية، ويعوّل ذلك على ثقافة الكاتب ومرجعياته الفكرية من جهة. ومن جهة أخرى تتحكم مضامين الرواية وثقافة شخصياتها في مرجعية التناص في الرواية وتمظهراته المختلفة.

وممّا يلفت الانتباه في الرواية النسائية التناص الشعبي الذي بدا ظاهرة تستحق الرصد، ولا يوجد حولها الكثير من الدراسات المستقلة، على الرغم من أهمية الموضوع وارتباطه بالتراث الخاص بالبيئة، والمتوارث عبر الأجيال. كما تكمن أهميته في غوصه في وجدان الشعوب ومعتقداتها وفكرها في تكوينه البدائي الذي شكلته البيئة، وفي تعبيره عن همومها وتحدياتها لعوائق الحياة من حولها. والرجوع إلى هذا الموروث وإن بدا في ظاهره نكوصاً للماضي، إلا أنّه مفسراً لكثير من السلوكيات في الحاضر، ومن جهة أخرى كاشفاً عن التطور الذي لحق بالتفكير والممارسة الجماعية للشعوب.

ومن هذا المنطلق جاء موضوع الدراسة تساؤل الدراسة عن الأشكال التي تمظهر بها التناص الشعبي في الرواية وعلاقتها بمضمون الرواية وبنيتها السردية؟، في نموذج من الروايات النسائية السعودية التي تستقي من الشعبي وهو رواية (نساء من أرض مدين) لفاطمة البلوي، متوسلة للإجابة عن ذلك بالمنهج التحليلي النقدي، من خلال محورين: الأول تناولت فيه: التناص وتاريخه النقدي، والثاني تناولت فيه: أشكال التناص الشعبي في رواية (نساء من أرض مدين)، ثم خاتمة تضمنت أبرز النتائج.

١-التناص وتاريخه النقدي:

الجذر اللغوي لمصطلح (التناص) هو (نصص)، الذي جاء في لسان العرب، بمعاني متعددة منها: الرفع، والظهور والحركة والسير الشديد والغاية[(١)]، وربما كان أقرب المعاني هو: "نص المتاع نصاً: جعل بعضه على بعض"[(٢)]؛ وذلك لأنَّ الصورة الحسية لتراكم المتاع على بعضه تشبه تراكم النصوص في الذاكرة القرائية، حتى يعلو بعضها على بعض. وهي فكرة مشابهة لمعنى المتعاليات التي تعلو فيها النصوص بعضها على بعض، ويعلو فيها النص على نص سبقه ليس قدراً ومكانة، وإنما كون العلاقة بينهما تشبه العلاقة بين الأساس والسقف في البناء باعتبار أن النصوص السابقة عليها يقوم النص الجديد.

(١) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون (د،ط)، (القاهرة: دار المعارف،(د.ت).مادة(نصص).

(٢) المرجع السابق، مادة (نصص).

وقد وردت كلمة تناص في المعجم الوسيط، للدلالة على الازدحام فيقال "تناص القوم بمعنى ازدحموا"(١). ويصور هذا المعنى الكم الكبير المتداخل، والذي تمثله علاقة التناص، باعتبار أنَّ النص حصيلة كم كبير من النصوص المتداخلة.

وقد ظهر مصطلح (التناص) على يد الناقدة البلغارية جوليا كريستيفيا عام ١٩٦٩م، وعلى الرغم من نسبته إليها إلا أن السبق إلى مفهومه كان لأستاذها باختين في دراسته لدستويفسكي، وإن لم يصرح فيها بلفظ (التناص)، ثم تناولته البنيوية الفرنسية والاتجاهات السيميائية والتفكيكية من خلال كتاباتها وكتابات رولان بارت وتودورف وغيرهم من رواد الحداثة النقدية ((٢)). وفكرة التناص سابقة على هؤلاء "إذ ساد في الماضي، إحساس عام بأن دراسة أعظم الأدباء لا يمكن أن تدور في فلكهم وحدهم، لأن مثل هذه الدراسة لا تكفي وحدها في تحقيق المعرفة الكاملة، ذلك أن معرفة الخلف ينبغي أن ترتبط بمعرفة السلف، وأكثر المبدعين أصالة هو مَنْ كان في تكوينه رواسب من الأجيال السابقة"((٣)).

ومفهوم التناص عند كرستيفيا لا ينفصل عن مفهوم النص، إذ ترى أنَّ النص ترحال لنصوص أخرى، وتداخل نصي تتقاطع فيه ملفوظات عديدة

(١) إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، ط٤، (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٤م)،٩٢٦.

(٢) ينظر: محمد عزام، النص الغائب تجليات التناص في الشعر العربي، (د.ط)، (دمشق: اتحاد كتاب العرب، ٢٠٠١م)،٢٨.

(٣) عزام ، مرجع سابق، ٢٨.

مقتطعة من نصوص أخرى[(١)]، و"هو عبارة عن فسيفساء من الاقتباسات، وكل نص هو تشرب وتحويل لنصوص أخرى"[(٢)].

وكذلك عند ليتش الذي يرى إنَّ النص ليس ذاتاً مستقلة، ولكنه سلسلة من العلاقات مع نصوص أخرى، وتكوّن هذه العلاقات شجرة نسب النص، والتي تتكون من شبكة غير تامة المقتطفات التي يستعيرها من نصوص أخرى بوعي شعوري أو غير شعوري"[(٣)].

وكذلك رولان بارت في مقالته (من العمل إلى الكتابة)، حيث ذكر أن كل نص هو نسيج من الاقتباسات والمرجعيات، وكل نص هو تناص مع نص آخر، وهو ينتمي إلى التناص، ولذلك فإنّ البحث عن مصادر النص هي محاولة لتحقيق أسطورة بنوته[(٤)].

أما ريفاتير فيربط التناص بالتلقي، فالقارئ هو الذي يحدد العلاقة بين العمل والأعمال الأخرى التي سبقته أو تلته. التي تمثل بدورها متناص العمل الأول[(٥)].

---

(١) ينظر: جوليا كريستيفا، علم النص، ترجمة فريد زاهي، مراجعة عبد الجليل ناظم، ط٢، (الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ١٩٩٧م)،٢١.

(٢) عزام، مرجع سابق، ٣٠

(٣) عبد الله الغذامي، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، ط٤،(د.ب: الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٨م)، ٣٢٥.

(٤) ينظر: أحمد الزعبي، التناص نظريا وتطبيقيا، (عمان، ٱمؤسسة عمون،٢٠٠٠م)،١٢.

(٥) ينظر: شرفي عبد الكريم، مفهوم التناص من حوارية ميخائيل باختين إلى أطراس جيرار جينات، دورية فصلية محكمة تصدر عن مركز البصيرة في الجزائر، ع٢، ٢٠٠٩، ٦٧.

يتبين مما سبق صلة التناص بالنص والقارئ، فبه وُصفت ماهية النص، بأنه تشرب وتحويل لنصوص أخرى، وأنه منفتح، وأنه يقضي على مقولة مصدر النص، لأن البحث عن مصدره هو قول بتفرعه، وإثبات لوجود الأصل، وجعله تابعاً لا نابعاً.

وأما صلته بالقارئ فهي صلة ترهين إذ أن تحقق التناص مرتهن بإدراك القارئ، فلو لم يدرك القارئ وجود نص آخر تناص معه النص الحالي، لن يكون هناك تناص. فكما أنَّ التناص نتاج لثقافة الكاتب، فإنَّه نتاج لثقافة القارئ، فهو ثمرة التقاء الثقافتين.

أمّا في النقد العربي فالتناص كإجراء يتشابه مع عدة مصطلحات في البلاغة العربية كالاقتباس والتضمين. وهو يتشابه مع قضية كبيرة في النقد العربي القديم وهي قضية السرقات الأدبية، والتي كان المتنبي وشعره محورها، حيث أفردت المؤلفات في سبيل إثبات سرقته أو الدفاع عنه، وكان من أبرز نقادها القاضي الجرجاني في كتابه (الوساطة بين المتنبي وخصومه)، حيث اتسم عرضه بالعمق والموضوعية، تنظيراً وتطبيقاً، إذ حاول تحديد الحالات التي يُحكم فيها بسرقة الشاعر، وأثبت عدم تجرد كبار الشعراء من ذلك(١).

ويرجع التشابه بين قضية السرقات ونظرية التناص إلى أن كلا منهما يهتم بموضوع تداخل النصوص، مما جعل بعض النقاد يرى في قضية السرقات جذورا لنظرية التناص، غير أن بعضهم الآخر كالناقد محمد مفتاح لم يتقبلوا هذه الفكرة، فقضية السرقات ظهرت في العصر العباسي، بينما نظرية التناص

(١) ينظر: علي الجرجاني، تحقيق: محمد أبو الفضل وعلي البيجاوي، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ط١، (بيروت: المكتبة العصرية،٢٠٠٦م)، ١٨١-١٨٥.

وليدة القرن العشرين، كما أن مفهوم السرقات له أبعاد جمالية وأدبية وأخلاقية، في حين أن نظرية التناص أبعادها أدبية وفلسفية ثائرة على كثير من المبادئ السابقة في العقلية الأوروبية الحديثة والمعاصرة(١).

ويؤكد الناقد عبد القادر بقشي ذلك حين يذكر أن كلام القدماء في هذا الموضوع لا يختلف عمَّا جاء في الدراسات النقدية الحديثة إلا في كونهم تناولوا ذلك من منظور أخلاقي للسرقات، وتبع ذلك تحديدهم لمصطلحاته ووسائله الخاصة به، في حين أن الدراسات النقدية الحديثة كان منظورها إيجابيا، ووضعت كل أنواع التداخل تحت مفهوم المتعاليات النصية، الذي ينسجم مع الرؤية الجمالية والبلاغية للسرقات في الشعرية العربية القديمة(٢).

ومن منظور أنَّ النص لا يولد من فراغ بل هو تداخل لنصوص أخرى، فإنّ مسألة القول بالسرقة أمرٌ صعب، ويتطلب دقة وتثبت، والمقصود منه المؤلف، بينما التناص له علاقته وطيدة بالنَّص أكثر، فالنص الغائب له علاقة بمضامينه، وجمالياته، ويظل ذلك مرهوناً بثقافة القارئ واطلاعه الواسع.

وأمَّا على مستوى النقد العربي الحديث فقد حظي مفهوم التناص باهتمام كبير من قِبل كثير من النقاد والباحثين، وكان محورا لكثير من الدراسات والرسائل الجامعية، ومن النقاد الذين اهتموا بمصطلح التناص:

---

(١) ينظر: عبد القادر بقشي، التناص في الخطاب النقدي والبلاغي دراسة نظرية تطبيقية، (د.ط)، (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٧م)، ٤٩.

(٢) ينظر: المرجع السابق، ٥٠.

-محمد مفتاح: الذي اهتم بالتناص تنظيرا وتطبيقا في تحليله للخطاب الشعري، فعرفه بأنه " تعالق (الدخول في علاقة) نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة"(١).

-سعيد يقطين: ويرى أن التناص " يأخذ بعد التضمين كأن تتضمن بنية نصية ما عناصر سردية أو تيمية من بنيات نصية سابقة، وتبدو وكأنها جزء منها، لكنها تدخل معها في علاقة"(٢).

- صبرى حافظ: الذي كان يرى للتناص بؤرة مزدوجة حيث يلفت اهتمامنا إلى النصوص الغائبة والمسبقة ويدعو إلى التخلي عن فكرة استقلالية النص، لأن أي عمل يكتسب معانيه بقوة ممَّا قبله من نصوص، كما يدعو إلى اعتبار النصوص الغائبة مكونات لشفرة خاصة يسهم وجودها في فهم النص وفض مغاليق نظامه الإشاري(٣).

وبما أن أن مفتاح ويقطين اهتما بالتناص كإجراء، واقتربا من ذلك من المفاهيم البلاغية والجمالية، فإن حافظ بدا أكثر تأثرا بالنقاد الغرب وعَرضه بوصفه مكون للنص، يلغي فكرة استقلالية النص، ويعزز فكرة انفتاح النص وتماهيه مع النصوص الأخرى، وأنَّ النص الغائب ما هو إلا مفتاح من مفاتيح فهم النص.

---

(١) محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) ،ط٣، (الدار البيضاء، بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٢م)، ١٢١.

(٢) سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، ط٢،(الدار البيضاء، بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠١م)، ٩٩

(٣) ينظر: صبري حافظ، التناص وإشاريات العمل الأدبي، مجلة ألف، القاهرة، ١٩٨٤م، ٩٣.

٣-أشكال التناص الشعبي في رواية (نساء من أرض مدين):

يُعدُّ الموروث الشعبي من المصادر الملهمة للمبدعين في الأدب العربي؛ وذلك لأنَّ العودة إليه إنما هي عودة للأصل والفطرة والبيئة، والذاكرة الشعبية، والوعي الجمعي للجماعة، والذي هو من وحي بيئتهم في المقام الأول. ويطلق على هذا الموروث اسم الفلكلور الشعبي، و"يشمل جميع الموروثات على مدى الأجيال من أفعال وعادات وتقاليد وسلوكيات وأقوال تتناول مظاهر الحياة العامة والخاصة وطرف الاتصال بين الأفراد والجماعات..."(١).

والفلكلور في العالم كله وعند كل شعب من الشعوب، يحقق الوجود الثقافي التلقائي الموروث له، إذ هو حصيلة نشاطه العلمي والفكري القائم على استغلال الظروف البيئية والمناخية والمتأثر بعوامل النحت الاجتماعي والتغيير السياسي، والنمو الاقتصادي معاً، وبهذا الفلكلور نكون أمام البيئة كما صنعها الإنسان، وكما طوعها، ثم تأثر بها وتفاعل معها، ليكون حصيلة هذا التأثر والتفاعل في عطاء مادي وقولي يمثل حركة ونمو فكري وسلوكي وحضاري(٢).

وتكمن أهمية الأدب الشعبي في أنه جزءٌ مهمٌ من كيان أي أمة من الأمم، وامتداد لوجودها الحضاري، ومعبرٌ عن هويتها الوطنية(٣)؛ ولذلك حرصت

---

(١)حلمي بدير، أثر الأدب الشعبي في الأدب الحديث، ،ط٢، (الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ٢٠٠٢م)،١٥.

(٢) ينظر: فاروق خورشيد، أدب السيرة الشعبية، د.ط، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية للطباعة والنشر،٢٠٠٢م)،٤.

(٣) إبراهيم نمر موسى، صوت التراث والهوية (دراسة في التناص الشعبي في شعر توفيق زياد)، مجلة جامعة دمشق، العدد الأول–الثاني ٢٠٠٨م، المجلد٢٤، ١٠٤.

عليه الأمم، وكان من أهم ما يميزه هو توارثه وتناقله عبر الأجيال مشافهة وتواترا، دون أن يكون ذلك عملا منظماً يقوم به أفراد أو مؤسسات للتعبير من خلال المادة التراثية(١)، وفي ظل شفاهية التناقل تغييب الذات المبدعة لهذا الموروث وتحضر الذات الجماعية التي يرتبط بها ارتباطاً قوياً.

ولذلك حظي الموروث الشعبي بالاهتمام في الرواية النسائية السعودية، إذ به تمد الكاتبة أو الروائية أواصر القربى مع تراث أجدادها وتحكي قصة ماضي المكان؛ ولذلك غلب على هذه الروايات البطولة المكانية أو البطولة الجماعية، إذ إن المستهدف ماضي أمة أو تراثها عبر امتداد الأجيال. وتتعدد أشكال هذا التراث فيها لتشمل الأساطير والخرافة والحكاية الشعبية والمثل الشعبي والعادات والتقاليد وأدوات الحياة وكل ما له صلة بالحياة في أبسط صورها، وبالتفكير الإنساني المستسلم للبيئة.

ومن الروايات التي مثّل التناص الشعبي ظاهرة من أبرز ظواهرها رواية (نساء من أرض مدين)، والتي تحكي قصة ثلاثة نساء في أرض مدين في فترة تاريخية سابقة تمتد من عام ١٢٦٦هـ-١٣٩٥هـ، ومعاناة هؤلاء النسوة، وحال المرأة في الصحراء وطبيعة حياتها، وفي إطار ذلك تستدعي الموروث الشعبي في سياق السرد للتعبير عن مضامين الرواية، وقد تمثل ذلك في الأشكال التالية:

(١) ينظر: عزام أبو الحمام المطور، الفلكلور(التراث الشعبي) الموضوعات، الأساليب، المناهج، ط١، (عمّان: دار أسامة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧م)، ٣٠

١-السيرة الشعبية:

السيرة الشعبية هي "لون من القصص الطويل، الذي يتراوح بين النثر والشعر، ويدور حول البطولة والفروسية"(١)، كسيرة أبي زيد الهلالي، وعنترة، وسيف بن ذي يزن، وغيرهم. وهي تتميز بأبطالها ومغامراتهم وانتصاراتهم؛ ولذلك هي مرتبطة في الذاكرة الجمعية العربية بالشخصية المركزية القائدة والمخلصة، الذي تتطلع إليه نفوسهم في كل مآسيهم.

وقد وظفت رواية (نساء من أرض مدين) السيرة الشعبية، من خلال قول راوية الجزء الثالث من الرواية، وهي (جميلة)، حيث قالت: "كنا في وادي يقال له الشبرمية، يصب في وادي القدير، يتميز ماؤه عن باقي الأودية بقربه من الملوحة، ويقال إن الهلاليين سكنوه. نسكن بقرب الصخرة التي رسم أبو زيد الهلالي فيها ناقته حيث وجد ابنته، وابنة أخيه تخبطان الأوراق وتأكلان من شجرة المرخ هذه، القابعة منذ مئات السنين هنا، وضعت يدي على خدي، وشرد ذهني مع أبي زيد الهلالي وتساءلت: أمعقول أن تكون هذه الشجرة هي من كانت تأكل منها ابنة أبي زيد وابنة أخيه؟ وتلك الناقة المرسومة على الصخرة رسمها أبو زيد بخنصره كما تقول القصة؟ ربما. ترى لو أن أبا زيد والدي، أكان يزوجني من ابن خالي وأنا لا أريده؟"(٢).

والتناص في هذا المقطع من وحي المكان الجغرافي في السرد، وآثاره التاريخية، ويستدعي آثار شخصية أبي زيد الهلالي مع ابنته وابنة أخيه حين وجدهما يأكلان من شجرة المرخ في الوادي نفسه كما تذكر الرواية. والبطلة حين يذكرها المكان بهذه القصة، إنما تحاول أن تتلمس لنفسها الخلاص

(١) غالي شكري، أدب المقاومة، (د.ط)، (مصر: دار المعارف،(د.ت)،٥٥.

(٢) نساء من أرض مدين:٣٥٢.

باستدعاء شخصية أبي زيد الهلالي مع ابنته حيث كان هو المخلص لها. وهذا الاستدعاء يكشف عن رغبة داخلية وحاجة نفسية عندها إلى مثل هذا المخلص الذي يتجسد في شخصية الأب، فهي تتمنى داخلياً أن يكون والدها مخلصها من الزوج الذي لا تريده.

بالإضافة إلى كون التناص ذي صلة بالمكان والشخصية في الرواية، فإنّ الرجوع إلى الموروث الشعبي من خلاله، كان غايته نقد حال البطلة التي أُجبرت على الزواج ممّن لا تريد جرياً على النظام القبلي الصحراوي، ممّا جعلها تتطلع لأب كأبي زيد الهلالي يحمل رمز (المخلص) من الظلم والعناء، فالاستدعاء نقد فكراً، وممارسة كانت موجودة.

٢-الحكاية الشعبية:

وتعرف "بأنها الخبر الذي يتصل بحدث قديم ينتقل عن طريق الرواية الشفوية من جيل لآخر، أو هي خلق حر للخيال الشعبي ينسجه حول حوادث مهمة وشخوص ومواقع تاريخية"(١). ومن ذلك على سبيل المثال تناص رواية (نساء من أرض مدين) مع حكاية شعبية لامرأة تُدعى خضراء كانت تهبّ لمساعدة الجميع، ولم يعرف قومها قدرها إلا بعد موتها، وقد جاء فيها على لسان الراوي (الجدة): "خضرا- سلمكم الله- عجوز عند عرب، كانت خيارة (أي شهمة وشجاعة) وهابت ريح، ومسنعة جماعتها بكل شيء، وإذا احتاج لها أحد وإلا مرض أحد من عربها هي أول من توقف عليه وتساعده. مرت الأيام، ومرضت خضراء وماتت، وفقدوها وحسوا بقيمتها..."(٢).

(١) إبراهيم، مرجع سابق، ٩١.

(٢) نساء من أرض مدين: ٣٧٤-٣٧٥.

والحكاية الشعبية التي تعطي دور البطولة للمرأة، وتركز على أهمية دورها في المجتمع الصحراوي، مع عدم تقديرها بما يتناسب مع هذا الدور، تتناسب مع السرد في الرواية الذي يعطي البطولة للمرأة كذلك، ويكشف عن دورها وما تعانيه من عدم تقدير لمكانتها في ذلك المجتمع.

وتناص الرواية مع حكاية شعبية من الموروث الشعبي مشابهة لها في المضمون يأتي تعزيزاً لفكرتها، وتأكيداً لامتداد الفكر والممارسة في الذاكرة الجماعية، وكون الحكاية تذكر أنّ قومها لم يعرفوا قيمتها إلا بعد موتها، فيه إشارة إلى معنى غياب المرأة أو تخليها عن هذه الأدوار رغبة في التعبير وقيمة ما كانت تفعل.

٣-الأسطورة:

كثيراً ما يحدث الخلط بين الأسطورة والخرافة؛ وذلك بسبب التقارب الشديد بينهما، وذكرت د. نبيلة إبراهيم أن الصلة بينهما "تتمثل في كونهما يحققان في الغالب هدفاً واحداً وهو إعادة النَّظام للحياة، ومع ذلك فإن الأسطورة تنتمي إلى سلوك روحي آخر غير الذي تنتمي إليه الحكاية الخرافية"(١). فهي ذات علاقة بالغيبيات والقوة الخفية المؤثرة على الإنسان والكون والطبيعة.

والأسطورة تختلف عن بقية أنواع الأدب الشعبي في صلتها الوثيقة بتساؤل الإنسان عن الآلهة والظواهر الكونية كالمطر والبرق والزرع(٢).

(١) إبراهيم، مرجع سابق، ٩.

(٢) ينظر: إبراهيم، مرجع سابق،١٠.

وفيما تقدمه من محاولة لفهم وتفسير هذه الظواهر الكونية، واعتمادها في ذلك على الخيال[١].

ومن نماذجها أسطورة (أم الغيث) في رواية (نساء من أرض مدين)، وهي عروسة يقوم العرب بصنعها للاستسقاء بها حين يتأخر المطر، تقول البطلة (جميلة): "إنّا إذا لم ينزل المطر، نقوم بعمل خشب كدمية، ونلبسها من ثياب النساء، ونسميها "أم الغيث"، ونغني عندها ثم ينزل المطر"[٢]. وهذه الأسطورة امتداد لأساطير العرب في الجاهلية، الذين اهتموا بتقديس الظواهر الطبيعية، وبخاصة المطر، حيث كانوا حينما يمتنع عليهم المطر يسوقون العتائر ويذبحونها قرابين لإله البرق، لينزل المطر، ويزول جدبهم[٣].

والرواية حين تتناص مع هذه الأسطورة تعبّر عن بساطة الفكر البدائي والجهل الذي كان سائداً، ويلفت النظر مسألة كون الدمية امرأة وتسمى بـ(أم الغيث)، فالمرأة والأم كانت ولا زالت في الذاكرة الجماعية رمزاً للحياة والخصب والتوالد. وفي هذا تأكيد على مكانتها التي تسعى الرواية إلى تأكيدها وبيان للتناقض بين الفكر الذي جعل منها أماً للغيث والممارسة التي قد تهمشها وتؤذيها.

---

(١) ينظر: إبراهيم، مرجع سابق، ٩.

(٢) نساء من أرض مدين:٣٩٧-٣٩٨، ٣٩٩.

(٣) ينظر، حسين الحاج حسن، الأسطورة عند العرب في الجاهلية، طبعة مزيدة، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٨م)، ١٧٢.

٤-الخرافة الشعبية:

الخرافة لا تقدم تفسيراً كالأسطورة إلا أنَّها تتصل بعالم الجن والسحر والشعوذة والخوارق(١)، ومن النماذج على ذلك (خرافة جنية السمتح)، حيث جاء على لسان جدة البطلة الثالثة (جميلة) في رواية (نساء من أرض مدين) حيث تقول: "طور السمتح الذي كان يحوي كهفها الذي كانت تعيش فيه، وتقتات من خطف النساء والرجال العُزّل والأطفال...ترك الرجل ابنه ذا العشرة أعوام قبيل الغروب عند النار يراقب العشاء وذهب ليعقل إبله، فتغافلته واختطفت الصبي، وعندما عاد الرجل لم يجد ابنه وشاهد مكان سحبها له، تبع آثارها حتى انتهت عند هذا الطور فعرف إنَّها السمتح، فترصد لها...وبنى رجماً اختفى وراءه. في الصباح الباكر خرجت من كهفها تتثاءب وتشد يديها إلى الأعلى، فأصابها برصاصة في جبهتها أردتها قتيلة"(٢).

والخرافة من وحي المكان في الرواية، فالصحراء مساحات شاسعة للهوام والدواب على اختلاف أشكالها، وقوتها في غموضها ومجاهيلها المخيفة للإنسان، وسكان الصحراء يعتقدون بتأثير الجن المؤذي في حياتهم، والذي لا يبدون تجاهه أي مقاومة، ولا يملكون تجاهه سوى الحذر.

والخرافة تقص حكاية جنية تدعى السمتح كانت مؤذية لسكان الصحراء، وتقتات من خطف الرجال والنساء والأطفال، ولم يستطع أحد مواجهتها، حتى ترصدها أحد الرجال بعد أن خطفت ابنه وقتلها.

---

(١) ينظر: فردريش دير لاين: الحكاية الخرافية، ترجمة: نبيلة إبراهيم، ط١، (بيروت: دار القلم،١٩٧٣م،٦٩.

(٢) نساء من أرض مدين:٣٩٤.

وعلى الرغم من سذاجة الخرافة إلا أنّها في مضمونها تحث إنسان الصحراء على مواجهة المخاوف والاعتداء واسترداد الحقوق مهما كانت قوة الخصم، وهذا ما يحتاج إليه الإنسان في صحراء تحيطه بالخوف والقلق.

وممّا يلفت النظر أن (السمتح) المهددة لهم كانت جنية أنثى، أضف إلى ذلك تناسب ذلك مع شخصيات الرواية الإناث، فيه إشارات إلى أنّ الأنثى قد تحمل قوىً خفية مؤذية لا يستطيع الكثير مواجهتها.

٥-الأغاني الشعبية:

ترتبط الأغنية الشعبية بوجدان الشعوب، وهي المعبر عن آمالها وآلامها، تتناقلها جيلاً بعد جيل "في شكل أهازيج موسومة بطابع شعبي محلي"(١). وهي غنية بما تحمله من تجارب إنسانية، ومعانٍ وتفسيرات ودلالات مختلفة. وهذا ما جعلها معين يستلهم منه المبدعون كتراث شعبي ثري ونابض(٢).

وفي إطار ذلك اهتمت الروائية السعودية بالأغنية الشعبية والشعر الشعبي في رواياتها فبالإضافة إلى كونه من التراث، فإنَّه مستلهم من المكان ومعبر عنه وعن شخوصه وبخاصة في البيئة الصحراوية، إذ وجد إنسان الصحراء فيها صدىً لصوته، الممتد في الصحراء، فكان لا يفتأ مغنياً في فرحه وعمله وحربه وحزنه وعشقه، وكأنَّه يواجه الصحراء بهذا الصوت والنغم ويتحدى سكونها وقلقها.

وقد وظفت رواية (نساء من أرض مدين) هذه الأغاني والأهازيج توظيفا جيدا، فسكان الصحراء يغنون حين تجدب الأرض طلبا للسقيا، إذ كان من

(١) اسمهان مزياني، تجليات التراث في رواية "سيد الخراب" لكمال قرور، جامعة محمد بخيضر بسكرة، الجزائر، ٣٦-١٤٣٧هـ، ٣٧.

(٢) ينظر: المرجع السابق، ٣٧.

طقوسهم ذلك حين تجدب الأرض كما في أسطورة (أم الغيث) السابقة والتي ذكرت أنهم يغنون ويرقصون حتى تمطر السماء[١]، وكذلك كانوا ينشدون لإبلهم، وينشدون في أعراسهم، ومن ذلك، قولهم[٢]:

يـــا الله بـــالنور الســـعيد والحـــزة المبـــاركه

والصـــقر لا ثـــوّر يصـــيد بالصـــيد مـــا أحـــدٍ شـــاركه

ويُلحظ أن نشيدهم يتناسب مع فكرهم وحياتهم ونظامهم القبلي، القائم على الصيد والقوة والتفرد، في جميع شؤون حياتهم. وقد وظفت الأناشيد في أحداث الرواية، فحدث زواج بطلة الرواية، مباغت لها، ودون مشاورتها، وكأنه صيد يُصاد، عبرت عنه من خلال الأغنية في زفافها على الجمل.

٦-الأمثال الشعبية:

تمثل الأمثال خلاصة لتجارب عاشها الإنسان عبر الزمن، وتحمل في ثناياها معرفته بنفسه وبالعالم من حوله[٣]. وتعكس ملامح العلاقات الاجتماعية للمجتمع الذي خرجت من رحمه[٤]. وهي نتاج التجارب الحياتية التي يمر بها أفراده، ويطلقون على إثرها الأمثال في صياغة "معبرة، وموسيقا مؤثرة، تجعلها مستساغة وعذبة السمع، ويسهل حفظها وتناقلها بين أفراد المجتمع، لتكون لهم هاديا إلى النمط السلوكي الإنساني الفاعل في الحياة"[٥].

(١) ينظر: نساء من أرض مدين: ٥٤.

(٢) ينظر: نساء من أرض مدين: ٥٩-٦٠.

(٣) ينظر: موسى، مرجع سابق، ١٢٩.

(٤) ينظر: موسى، مرجع سابق، ١٣٠.

(٥) موسى، مرجع سابق، ١٣٠.

وقد تناصت رواية (نساء من أرض مدين) مع بعض الأمثال الشعبية، ومن ذلك: المثل القائل: "اللي ما يصيدك صيده"، وهو معبر عن أسلوب الحياة في الصحراء، وطريقة التعامل فيها، فدائما هناك صياد، وهناك فريسة، من أجل الحياة التي تقوم على مبدأ البقاء للأقوى، والمثل المنسجم مع حياة الصحراء ومطاردة الفريسة، أصبح يؤسس لطريقة التعامل مع النَّاس في البيئة.

وكذلك المثل القائل: "اضرب النسا بالنسا والهجن بالعصا"، وهو يندرج تحت المبدأ السابق حيث البقاء والسيطرة للأقوى، ليس في حال المطاردات بل حتى مع الأضعف المرأة والحيوان، العلاقة قائمة على الضرب والعنف، ولكن كل بما يناسبه، والمثل يؤسس لطريقة تعامل الرجل مع المرأة وتأديبه لها في مجتمع الصحراء. ويعكس الفكر والممارسة الاجتماعية عليها من الزوج. والتي كانت في محل نقد في الرواية.

تبين ممّا سبق أشكال التناص الشعبي في رواية (نساء من أرض مدين)، وعلاقته بمضمونها، وقضيتها تجاه المرأة، وبنتيها السردية كذلك، وظهر بجلاء أثر الكاتبة كامرأة، حيث رجعت إلى الموروث لتسرد عنه، منتقية منه ما يمس ذاتها وحياتها، لتدفع بنفسها من الهامش إلى المركز في الرواية.

الخاتمة

من أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة ما يلي:

١-تعدد أشكال التناصات الشعبية في رواية (نساء من أرض مدين) كنموذج للرواية النسائية السعودية.

٢-الرواية مكانها الرئيسي الصحراء في فترة تاريخية سابقة، فأبعدها ذلك عن العلم والدين والمدنية، فناسب أن تكون كل تناصاتها من الموروث الشعبي على اختلاف أشكاله.

٣-وظفت الرواية الموروث الشعبي في سياق المضمون الذي تدور حولها، وهو حال المرأة في المجتمع الصحراوي، البعيد عن الدين والعلم والمدنية، في فترة تاريخية قديمة ترجع إلى القرن الثالث الهجري.

٤-كشف الموروث الشعبي في أحد جوانبه عن موقف الفكر الشعبي من المرأة، وتعامله معها.

٥-ركزت التناصات الشعبية على بعض الأساطير والخرافات التي كانت بطلتها امرأة، كرد فعل لاستضعاف المرأة في المجتمع.

٦-الموروث الشعبي في جوهره يحمل طريقة تعامل إنسان الصحراء معها، فالجفاف والمجهول يواجهه بخرافة وأسطورة كما في (أم الغيث) و(جنية السمتح).

٧-أهم العناصر السردية المؤثرة في التناص الشعبي، هي على التوالي: المكان، والزمان، والراوي المشارك الذي كان شخصية امرأة في الرواية.

٨-ظهور أثر الكاتبة كامرأة تنتقي من الموروث ما يمس ذاتها وحياتها، تعبيراً عن نفسها ونقداً للآخر.

قائمة المصادر والمراجع

أ-الروايات:

- فاطمة أحمد البلوي، نساء من أرض مدين، ط١، (حائل: النادي الأدبي الثقافي، ٢٠١٤م).

ب-المراجع:

- محمد خير البقاعي: دراسات في النص والتناصية، ط١، (حلب: مركز الإنماء الحضاري، ١٩٩٨م)،
- إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، ط٤، (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٤م).
- محمد عزام، النص الغائب تجليات التناص في الشعر العربي، (د.ط)، (دمشق: اتحاد كتاب العرب، ٢٠٠١م).
- جوليا كريستيفا، علم النص، ترجمة فريد زاهي، مراجعة عبد الجليل ناظم، ط٢، (الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ١٩٩٧م).
- عبد الله الغذامي، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، ط٤،(د.ب: الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٨م).
- أحمد الزعبي، التناص نظريا وتطبيقيا، (عمان، مؤسسة عمون،٢٠٠٠م).
- عليّ الجرجاني، تحقيق: محمد أبو الفضل وعلي البيجاوي، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ط١، (بيروت: المكتبة العصرية،٢٠٠٦م).
- عبد القادر بقشي، التناص في الخطاب النقدي والبلاغي دراسة نظرية تطبيقية، (د.ط)، (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٧م).
- حلمي بدير، أثر الأدب الشعبي في الأدب الحديث، ،ط٢، (الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ٢٠٠٢م).
- فاروق خورشيد، أدب السيرة الشعبية، د.ط، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية للطباعة والنشر،٢٠٠٢م).

- عزام أبو الحمام المطور، الفلكلور(التراث الشعبي) الموضوعات، الأساليب، المناهج، ط١، (عمّان: دار أسامة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧م).
- غالي شكري، أدب المقاومة، (د.ط)، (مصر: دار المعارف،(د.ت)،٥٥.
- نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ط٣، (مصر: دار النهضة للطباعة والنشر، ١٩٩١م).
- حسين الحاج حسن، الأسطورة عند العرب في الجاهلية، طبعة مزيدة، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٨م).
- فردريش دير لاين: الحكاية الخرافية، ترجمة: نبيلة إبراهيم، ط١، (بيروت: دار القلم،١٩٧٣م).
- مكرم بن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون (د،ط)، (القاهرة: دار المعارف،(د.ت).

- **ج-الدوريات:**

- شرفي عبد الكريم، مفهوم التناص من حوارية ميخائيل باختين إلى أطراس جيرار جينات، دورية فصلية محكمة تصدر عن مركز البصيرة في الجزائر، ع٢، ٢٠٠٩.
- إبراهيم نمر موسى، صوت التراث والهوية (دراسة في التناص الشعبي في شعر توفيق زياد)، مجلة جامعة دمشق، العدد الأول-الثاني ٢٠٠٨م، المجلد٢٤.

- **د-الرسائل العلمية:**

- اسمهان مزياني، تجليات التراث في رواية "سيد الخراب" لكمال قرور، رسالة ماجستير، جامعة محمد بخيضر بسكرة، الجزائر، ٣٦-١٤٣٧هـ.